

المحاضرة الثامنة: الاتجاه التأويلي (نصر حامد أبو زيد)

في الحقيقة أن التأويل ومحاولة إعادة قراءة النص القرآني هو صلب المشروع الفكري لنصر أبو حامد أبو زيد (1943 - 2010)، حيث يقتفي أثر علماء اللسانيات المعاصرين وعلى الأخص جورج لوتمان، وقد ترجم له أبو زيد اثنين من مؤلفاته إلى العربية في التعاطي مع النص القرآني باعتباره نصاً أدبياً، إذ لا فرق بين نص وآخر من حيث تشكلها وأثرها إلا في الدرجة، أما في النوع فلا اختلاف، فالمسافة حسب اعتقاده بين النص الديني والنص الأدبي ليست بعيدة.

وتتقسم مؤلفات نصر أبو زيد إلى قسمين متكاملين: **القسم الأول** وهو القسم الأهم ويضم مؤلفاته التي تُكوّن مشروعه العلمي في تأسيس منهج لقراءة التراث في كل علومه ومجالاته المعرفية، ومنها: (الاتجاه العقلي في التفسير. دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة)، (فلسفة التأويل. دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي)، (مفهوم النص. دراسة في علوم القرآن)، (إشكاليات القراءة وآليات التأويل)، (الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية)، (النص، السلطة، الحقيقة)، (دوائر الخوف. دراسة في خطاب المرأة)، (الخطاب والتأويل)، (هكذا تكلم ابن عربي). أما **القسم الثاني** فيضم مؤلفاته التي قام فيها بنقد التيارات الدينية المتشددة، والكتب التي رد فيها على منتقديه، ودافع فيها عن أفكاره ومشروعه العلمي وعن نفسه ضد خصومه من أصحاب الفكر التقليدي المحافظ، وهي: (نقد الخطاب الديني)، (التفكير في زمن التكفير)، (القول المفيد في قصة أبو زيد)، (البحث عن أفنعة الإرهاب)، (التراث بين الاستخدام النفعي والقراءة العلمية)، (إهدار السياق في تأويلات الخطاب الديني).

أولاً: الخطاب التأويلي في مشروع حامد أبو زيد الفكري

تقوم قراءة نصر أبو زيد، سواء من حيث منهجها العلمي أو من حيث مضمون نقدها للقراءات القديمة والحديثة للتراث على أسس خطاب تأويلي حديث، يقول حامد أبو زيد عن مشروعه في قراءة

التراث وتحليل الخطاب، في مقدمة كتابه: (النص، والسلطة، والحقيقة): " إن الخطاب الذي يطرحه هذا الكتاب يعد في جانب منه توصلاً مع خطاب عصر النهضة في جانبه الديني، ليس بدءاً من محمد عبده حتى محمد خلف الله أحمد، بل هو تواصل مع هذا التراث في بعده الأعمق المتمثل في الإنجازات الإعتزالية الرشدية، ولكنه تواصل يمثل الامتداد النقدي لا لخطاب النهضة فقط بل للخطاب التراثي كذلك.."

وعن مفهوم (النص) عند حامد أبو زيد الذي أثار الكثير من اللبس والالتباس، فيعود بالأساس إلى استخدامه لهذا المفهوم المحوري في علم تحليل الخطاب وذلك في معظم كتبه ودراساته، وبالأخص في كتابه: (مفهوم النص . دراسة في علوم القرآن)، حيث أوضح أن القرآن الكريم نص لغوي، يمثل في تاريخ الثقافة العربية النص المحوري، ومن هنا يمكن وصف الحضارة العربية الإسلامية بأنها حضارة (النص)، بمعنى أنها حضارة انبنت أسسها وقامت علومها وثقافتها على أساس لا يمكن تجاهل مركز (النص) فيه.

وينتقد أبو زيد في هذا الكتاب التفسيرات التقليدية للقرآن، ويدعو إلى تفسير علمي منهجي مدعوم بالأدلة والحجج، ينطلق من النص ليصنّفه في سياقه التاريخي، فيفرّق بين المعاني العقائدية والمعاني التي فرضها السياق التاريخي. ويؤكد أن القراءة المعاصرة للقرآن يجب أن تستعين بمناهج علوم اللغة والتاريخ، خاصة أن النص القرآني يحتمل قراءات وتفسيرات مختلفة. وقد ظهرت في التاريخ الإسلامي قراءات وتفسيرات متنوعة، قبل أن يحتكر المسلمون المتشددون تفسيراتهم الأحادية المنفردة لمعاني القرآن الكريم، والتي حصروها في إطار المسموحات والمحرمات لا غير. ويفرق نصر أبو زيد ومن منظور علم تحليل الخطاب، بين النص الأصلي والنص الثانوي. وفي التراث الإسلامي يمثل القرآن الكريم (النص الأصلي)، والنصوص الثانوية هي التي تبدأ بالنص الثاني، وهو نص السنة النبوية المشرفة، التي هي في جوهرها شرح وبيان للنص الأصلي الأول (القرآن الكريم). وبناء على التفرقة السابقة، فإن اجتهادات الأجيال المتعاقبة من العلماء والفقهاء والمفسرين تعد نصوصاً ثانوية أخرى، من حيث هي شروح وتعليقات على النصين الأول والثاني، (القرآن الكريم) و(السنة النبوية المشرفة).

وواصل أبو زيد اجتهاداته العلمية، متسلحاً بمعرفته العميقة ودراسته المتأنية لعلوم اللغة الحديثة ونظريات التأويل (الهرمنيوطيقا)، وعلم تحليل الخطاب، حيث كان يطمح إلى تأسيس منهج نقدي لدراسة الخطاب الديني، بمختلف أشكاله وتجلياته، القديم منها والحديث، على أسس علمية حديثة، محلاً لخطابات المسلمين عن الإسلام، كاشفاً عن العناصر التكوينية لها ودلالاتها المستنبطة منها، موضحاً أن استخدامه لمصطلح (نقد الخطاب الديني) لا يعني نقد الدين، إنما يعني نقد مفاهيمه التأويلية وتصوراته التفسيرية في أذهان المؤمنين به أو الممارسين له أو الدارسين لنصوصه على السواء، يحكمه في كل ذلك إطار مرجعي يستند إلى الميراث العقلاني للمعتزلة على وجه الخصوص.

ثانياً: إشكالية تفسير النص في فكر حامد أبوزيد

في مقدمة بحثه المعنون (الهرمنيوطيقا وتأويل النص الديني) يشير نصر أبو زيد إلى أن قضية الهرمنيوطيقا الأساسية هي البحث عن (معضلة تفسير النص) سواء أكان دينياً أم دنيوياً، وأنها تثير الكثير من الأسئلة حول طبيعة النص وعلاقته بالتراث والتقاليد من جهة، وحول علاقته بمؤلفه أو مفسره من جهة أخرى، ومعضلة تفسير النص ليست قاصرة على الفكر الغربي وإنما تشمل الفكر الإسلامي الذي عانى ولا يزال يعاني من معضلة تفسير النص في تراثنا القديم أو الحديث.

ويوضح أبو زيد أنه على مستوى التراث والتفسير كان هناك دوماً تمييز حاسم بين (التفسير بالمأثور) الذي استند على تجميع الأدلة اللغوية والتاريخية التي تساعد على فهم النص، وبين (التأويل) أو ما يطلق عليه التفسير بالرأي الذي لا يبدأ من المعطيات اللغوية والتاريخية، وإنما من موقف المفسر الذي يحاول أن يجد له سنداً في القرآن، وغالباً ما وصف التأويل بأنه ذاتي وغير موضوعي على حين وصف التفسير بالمأثور بأنه موضوعي.

إن وجود هذين الاتجاهين التفسيريين يحمله على الاعتقاد بوجود معضلة في التراث الديني، حيث يمثل كل منهما زاوية في النظر إلى علاقة المفسر بالنص، فالإتجاه الأول يتجاهل المفسر ويلغي وجوده لصالح النص وحقائقه التاريخية واللغوية، بينما لا يتجاهل الإتجاه الثاني مثل هذه

العلاقة، بل يؤكد على خلاف في مستويات هذا التأكيد وفاعليتها بين الفرق والاتجاهات التي تتبنى هذه الزاوية.

وينتج عن هذه المعضلة مشكل ميتافيزيقي لم يقف على أبعاده الأولون يتمثل في: كيفية الوصول إلى مراد القرآن، وهل في طاقة الفريقين الوصول إلى القصد الإلهي في إطلاقيته وكماله؟ وهو يجب على الأخير بالنفي مفترضا أنه ليس بمقدور أحد من المفسرين الوصول إلى القصد الإلهي لكون النص الإلهي يتضمن دلالات غير متناهية، لا يمكن الوقوف عندها من جهة، ولأنه لا توجد ثمة قراءة بريئة من جهة أخرى، فكل قارئ للقرآن قادر على أن يستنبط من النص ما يشاء من المعاني والدلالات، إذ أن النص ذاته يحتمل أكثر من قراءة، وليس هناك قراءة منزهة، لأن أي قراءة تحمل معاني التبديل والإزاحة للمعنى، وبالتالي ليس هناك قراءة أو تفسير يطابق النص أو مراده مطابقة تامة، وإذا أخذنا بهذه الفكرة فإنه يمكن أن تتولد على هامش النص قراءات لا نهائية التي لا يضبطها ضابط ولا يربطها بالنص الأصلي صلة، ولعل هذا ما حدا بعلماء السلف إلى وضع ضوابط لغوية ومنهجية صارمة للتعامل مع النص القرآني والحديثي.